وصفة سحرية

هل هناك حقًّا وصفة سحرية من أجل تربية طفل واثق بنفسه ومستقل ومنظم ودقيق ومتعاون؟ نعم! لقد اكتشفتها د. «ماريا مونتيسوري» وطبقتها أجيال من الأمهات والجدات، ثم أغفلتها الأجيال الحديثة التي تعاني اليوم مع أطفالها! تنقسم دراسة نهج المونتيسوري في مرحلة الطفولة المبكرة إلى عدة أقسام، ويتم دراستها وتقديمها للطفل بنفس هذا الترتيب: الحياة العملية، أنشطة حسية، ثقافة وعلوم، اللغة، وأخيرًا الرياضيات. في بداية دراستي، سألت نفسي عن سر هذا الترتيب، لماذا يتم تقديم أنشطة الحياة العملية أولا للطفل؟ لو كان الأمر متروكًا لي، كنت بدأت بأنشطة وأدوات تعليم اللغة! أليس هذا ما نبدأ به في الحضانات والمدارس؟

وجدت الإجابة في أول خمس صفحات في كتيب الحياة العملية! أنشطة الحياة العملية مألوفة للطفل، يراها في المنزل ويألف أدواتها، وهذا يقلل من رهبته عند بداية الدراسة. يشعر الطفل بالرهبة في فصل لا يعرفه ومدرسات لا يألفهن وأطفالًا لم يرهم من قبل! منطقة الأمان بالنسبة له هي ركن أنشطة الحياة العملية. السبب الآخر هو دفعة الثقة بالنفس

التي يأخذها الطفل في هذا الركن! تخيلوا لو بدأت، مثلما أردت أن أبدأ أنا، بتعليم الطفل أصوات الحروف، ولأي سبب لم ينجح الطفل في ترديدها أو تذكرها أو معرفة رموزها! كيف سيشعر؟ بالتأكيد سوف يشعر بالفشل وسوف ينفر من الأنشطة، وربما يكره الدراسة من أساسها! تخيلوا سيناريو آخر وقد تعلم الطفل الإمساك بفوطة صغيرة وقام بتلميع طاولة أو اثنتين في الفصل، أو قام بري الزرع باستخدام رشاش صغير، أو قام بصب الماء لنفسه، كيف سيشعر الآن؟ بالتأكيد سوف يشعر بالنجاح وسوف يقبل على تعلم الأنشطة الأكثر صعوبة بثقة.

السؤال الثاني الذي يطرح نفسه هو كيف أساعد الطفل على النجاح في أنشطة الحياة العملية؟ دوري كأم وكمعلمة أن أمهد طريق النجاح لطفلي بدلًا من تعجيزه وتأهيله للفشل!

إذا قلت لطفلي «اغسل ألعابك في الحمام» سوف يفشل! سوف يخطئ! النشاط سهل ولكن بالنسبة للطفل هذا طلب تعجيزي!

التصحيح: «هيا بنا نتعلم كيف ننظف عرائسك! أولًا سوف نحضر العرائس (ونذهب لنحضرهم). ثانيًا سوف نخلع ملابسهم (ونخلع ملابسهم). ثالثًا سوف نملأ الطشت ماء (وهكذا نفعل). رابعًا سوف نضع أول عروسة في الماء. خامسًا سوف نضع قطرة صابون على الإسفنجة. سادسًا سوف نغسل العروسة. سابعًا سوف نجففها. ثامنًا سوف نضع عليها ملابسها. تاسعًا سوف نعيدها إلى مكانها في الحجرة. عاشرًا سوف نكرر الخطوات مع العروسة الثانية.

يتعلم الطفل عندما يرى ولهذا السبب يجب أن يراني أنفذ هذه الخطوات حتى يتعلمها. هناك طفل يحتاج أن يرى الخطوات مرة واحدة وهناك طفل يحتاج أن يرى الخطوات خمس مرات. إذا شعرت أن المهمة صعبة على الطفل، يمكن أن يتدرب على كل خطوة على حدة، في عمر عامين يتدرب على إحضار العروسة وإعادتها إلى مكانها، هذا نشاط مستقل بذاته! في عمر ثلاثة أعوام يتدرب على خطوات غسل العروسة وتجفيفها. في عمر أربعة أعوام يتدرب على خلع وارتداء الملابس.

السؤال الثالث: هل حقًّا غسل العرائس مهم إلى هذا الحد؟

هيا بنا نستعرض ماذا تعلم الطفل من خلال هذا النشاط:

- التركيز من خلال فهم الخطوات واتباعها.
- إتمام العمل من البداية إلى النهاية.
- تفكيك كل ما هو صعب إلى خطوات صغيرة والتدريب على كل خطوة على حدة.
- الثقة بالنفس، لقد أتم المهمة بنجاح.
- مهارات حركية متعددة سوف تساعده فيما بعد على الكتابة.
- مهارات حل المشاكل والتفكير المنطقي.
- مهارات إتقان العمل، العروسة أصبحت نظيفة.
- التعلم من خلال التكرار، تكرار الخطوات مع العروسة الثانية.
- العمل المُنتِج، هو لم يكن يلعب أو يضيع وقته، لقد كان يعمل!
- النظام والترتيب.
- التوافق العضلي العصبي.
- الصبر.
- الاستقلال، إذا أتقن الطفل هذا النشاط فسوف يتقن ارتداء وخلع ملابسه بنفسه والاستحمام مستقلًا!

السؤال الرابع: ما هي أنشطة الحياة العملية في نهج المونتيسوري؟

تنقسم هذه الأنشطة إلى أربعة أنواع:

النوع الأول: أنشطة ابتدائية مثل إحضار سجادة العمل وفردها وإحضار النشاط من على الرف وإعادته مكانه وصب الماء من وعاء إلى آخر باستخدام أدوات مختلفة ونقل الحبيبات من وعاء إلى آخر باستخدام أدوات مختلفة.

النوع الثاني: الاعتناء بالنفس مثل غسل الأيدي والوجه والأسنان واستخدام التواليت واستخدام المنديل لتنظيف الأنف وتعلم فك وربط الأزرار والسوستة والكباسين.

النـوع الثالث: العناية بالبيئة وهي تشـمل العناية بنظافة المنـزل والفصل والحفاظ على الطبيعة.

النوع الرابع: الذوق واللياقة وهي تشمل السلوكيات العامة مثل التحية والتعارف وآداب المائدة.

في كل الأنواع السابقة، ذكرت مجرد أمثلة لفهم كل طبيعة كل نوع من أنشطة الحياة العملية.

السؤال الخامس: ماذا يحدث للطفل الذي لا يتعلم هذه الأنشطة؟

تبدأ المرحلة الحساسة للنظام ولتعلم أنشطة الحياة العملية في عمر سنتين، وتستمر حتى ست أو سبع سنوات! خلال هذه الفترة يريد الطفل أن يلمع الطاولة ويغسل الأطباق ويساعد في إعداد المائدة ويرش ملمع الزجاج وغيرها من الأعمال اليومية! إذا تم استغلال هذه المرحلة الحساسة، فسوف يصبح طفلكم واثق بنفسه ومستقل ومنظم ودقيق ومتعاون. إذا تم منع الطفل من هذه الأعمال بحجة الإتلاف والإفساد وأنه لا يعرف، فسوف تمر المرحلة وتحصلون على مراهق وشاب _فتى أو فتاة_ يحتاج دائمًا إلى من يخدمه وينفر من جميع الأعمال المنزلية! سوف يعاني هذا الشخص في الدراسة المدرسية والجامعية وفي العمل لأنه يجد صعوبة بالغة في إنهاء ما بدأ وفي إتقان ما يعمل وفي نظرته لنفسه وقدراته وإمكانياته!

كيف يتعلم الطفل الاستقلال؟

الحرص على تربية طفل مستقل تعتبر من أولويات كل أم وكل أب، على الأقل من الناحية النظرية!

بدافع تربية هذا الطفل المستقل، ترفض الأم حمل طفلها إلا إذا كان بغرض الانتقال أو الرضاعة أو تغيير الحفاضات أو الاستحمام. ينصح الناصحون بعدم حمل الطفل وتركه يبكي ما دام على الأرض ولا يوجد خطر جسدي عليه، حتى لا يعتاد الطفل على «الشيل». ينصح الناصحون كذلك بنوم الطفل في سرير منفصل أو غرفة منفصلة مباشرة بعد الولادة، أو بعد عدة أشهر من عمر الطفل. يترك الطفل يبكي في سريره وحده خلف باب مغلق حتى لا يزعج أحدًا بأصوات الاستغاثة. يفتخر أصحاب هذا النهج في التربية بأنه بعد أسبوع على الأكثر من البكاء المتواصل يقتنع الطفل أنه لا فائدة من الصراخ ويأس ويصمت وينام ويرتاح الجميع!

ينصح الناصحون كذلك بدفع الطفل دفعًا خارج المنزل، ووضعه في حضانة في أسرع وقت حتى يستقل عن الأم ويعتاد الغرباء. أما بالنسبة لاستخدام التواليت والاستغناء عن الحفاضات، بغض النظر عن استعداد الطفل، ينصح الناصحون بهذه الخطوة في عمر عام ونصف أو عامين على الأكثر ولا مانع من ضرب الطفل على ساقيه ومؤخرته حتى يعرف «الصح من الغلط». يقول الناصحون إن الطفل كائن ملتوٍ يستخدم الزن والبكاء للتلاعب بالكبار وأن على الأهل الحريصين على استقلال الطفل تجاهله حتى لا يفسد!

يقول دكتور وليام سيرز المدافع عن نهج التربية من خلال الارتباط الوثيق بين الطفل والأهل – Attachment Parenting – إن هناك فرقًا بين الاستقلال والانفصال. الطفل المستقل عن أهله يشعر بالسعادة في استقلاله وبالثقة في نفسه وفي خطواته ويشعر بالأمان الداخلي النابع من حب الأهل وحنانهم ويعرف جيدًا أنه يستطيع الاعتماد على أهله والثقة بهم في أي وقت. الطفل المنفصل قد يبدو مستقلًا ولكن إذا نظرنا له وجدناه غاضبًا عنيدًا خائفًا. الطفل المنفصل لا يثق بنفسه ولا يثق بأهله ويرفض نصحهم وتدخلهم لأن خلايا عقله وجسده تحمل ذكريات الهجر والخذلان. هناك نوعان من الأطفال المنفصلين عن أهلهم، الطفل المنفصل المعتمد والطفل المنفصل غير المعتمد. النوع الأول منفصل عاطفيًّا ولكنه يعتمد على أهله في جميع نواحي الحياة والنوع الثاني منفصل عاطفيًّا وماديًّا وجسديًّا!

تقول د. «ماريا مونتيسوري» في كتابها The Absorbent Mind إن هناك أشياء كثيرة لا يمكن أن تعلمها للطفل، مثل الجلوس والمشي والكلام وإطعام نفسه وخلع وارتداء ملابسه والاستقلال! كل ما يمكنك أن تقدمه للطفل هو بيئة صديقة تساعده على هذه الخطوات عندما يكون مستعدًّا لها جسديًّا وعصبيًّا ونفسيًّا. لا يمكنك أن تجعل طفلًا يسير قبل أوانه وإلا نتج عن محاولاتك العديد من الإحباطات والشروخ النفسية وتقوس في عظام الساقين! كذلك لا يمكنك تعليم الطفل الاستقلال من خلال إرغامه على الابتعاد عنك وحرمانه من الشعور بالأمان ونكران حقه في الحضن والحب والاستجابة لندائه. مثل هذه النصائح تؤدي إلى النفور والعديد من المشاكل النفسية.

من ناحية أخرى، نجد نفس هؤلاء الحريصين على استقلال الطفل أول المجهضين لكل محاولاته للاستقلال! لا تعبث بالطعام! لا تمسك الملعقة! لا تنزل على الأرض!

لا تركض! لا تتحدث! لا تسأل! لا تتسلق! لا تفتح! لا تغلق! لا تلمس! لا تعبث بالسوستة! لا تخلع حذاءك! لا تقل لا! ينشأ الطفل في منزل مليء بالقيود ويدخل حضانة تزيد من قيوده ثم يدخل مدرسة تتبع أسلوبًا تربويًّا يزيده تكبيلًا ثم نتساءل كيف نعلم الطفل الاستقلال؟